

من الأدب التعليمي

أنا... والنجوم !

للأستاذ علي الطنطاوي

ما من كلمة هي أثقل على أذن السامع وأبغض إليه ، من كلمة (أنا) . وما حدث أكره إلى الناس من حديث المرء عن نفسه ... بيد أني متحدث الليلة عن نفسي ، وقائل (أنا) . وجاعلها عنوان مقالتي ، لأنني منفرد بنفسي ، لا أجد معي من أتحدث عنه إلا (أنا) .

أنا حين أتحدث عن نفسي أتحدث عن كل نفسي ، وحين أصف شعور واحد وعواطفه ، أصف شعور الناس كلهم وعواطفهم ، كصاحب التشریح لا يشق الصدور جميعاً ليعرف مكان القلب وصفته ، ولكنه يشق الصدر والصدرين ثم يقعد القاعدة ، ويوصل الأصل ، فلا يشذ عنه إنسان ... سنة الله في الخلق ، وقانونه المحكم ، ونظامه العجيب الذي جعل الناس مختلفين وهم متشابهون - ومتشابهين وهم مختلفون ، برأهم على الوحدة في الحقيقة ، والتنوع في الجمال ، تخلق العيون كلها خلقاً واحداً ، كل عين ككل عين ، في تركيبها ووضعها ، وصفتها ، وما عين مثل عين في شكلها ومعناها وجمالها . تلك حكمة الحكيم الخبير ، وهذه صنعة المبدع القدير .

أنا منفرد على سطح دار في (الزبير) (١) في هذه الليلة الساكنة المتلألئة النجوم ، وأمامي الصحراء التي تمتد إلى عمان

(١) الزبير : بلدة منيرة . على شيف البادية . غربي البصرة . تبعد عنها سبعة أميال . فيها قبر بطل الإسلام الزبير بن العوام أحد العشرة المبشرين بالجنة . وعلى مقدمة منها أطلال عليها نقوش ظاهرة المشهورة أنها أطلال مسجد البصرة الجامع وأهلها يلبسون أثني عشر ألفاً ، كلهم مسلمون سنيون يميلون إلى السلفية . ويحبون العلم . فيها مساجد كثيرة كلها يقام فيها الجمعة ومدرسة أميرية راقية ، ومدرسة أهلية إسلامية أسسها الشيخ الضيق رحمه الله عليه . والراجح أنها هي البصرة القديمة والله أعلم فليس هذا من بطل .

والعين ونجد والحجاز ، وورائي السواد الذي يصل إلى أرض فارس ، وهي قرية ، حتى أني لأرى لهيب النفط المشتعل في (عبادان) وأنا في مكاني ... أتأمل هذه الصحراء المجيدة المباركة . التي كتب علي رمالها أروع سطور المجد ، وأجل صحائف التاريخ ، ونبت في رمالها دوح الحضارة الذي أوتى إليه الإنسانية ، وتفتأت ظلاله يوم لا ظل في الأرض إلا ظله ؛ وأفكر فيطول بي التفكير ، ويطل بي الفكر على آفاق واسعة ودنياوات عظيمة ، وتنباح في نفسي أصباح منيرة ، فأجد في رأسي مئات من الأفكار الجديدة الكبيرة ، وفي نفسي مئات من الصور الرائعة المبتكرة ، ولكنني لا أكاد أمسك واحدة منها لأقيدها بالألفاظ ، وأغلبها بالكلم ، حتى تفلت مني وتعدو في طريقها متحدرة إلى أغوار عقلي الباطن ، فلا أنا استمعت بها استمتاع الناس بأفكارهم ، ولا أنا سجلتها في مقالة وصنعت منها تحفة أدبية ، ولو أني قدرت أن أكتب معشار ما أتصور لكنت شيئاً عظيماً ، ولكنني لا أقدر ... ولا أصب في مقالتي إلا حثالة أفكارى ؛ تنبت الأفكار في نفسي وتزهر وتثمر ، ثم تذوي وتجف فأخذ الهشيم فأضعه في مقالتي !

ويتفجر ينبوع في نفسي ، ويتدفق ويسيل ، ثم ينضب وينقطع ، فأخذ الوحل فأضعه في مقالتي !

وينبثق الفجر في نفسي ، ويقوى ويشتد ، ويكون الضحى والزوال ، ثم يعود الليل ، فأخذ قبضة من ظلام الليل ، لا كتب منها مقالة ، عنوانها ... ضياء الفجر ، !

من أجل ذلك أكره أن أنظر في كل ما نظرت ، وأستحي أن أعود إليه ، وأحب كل جديد لم يشر ، وأرى أن الذي يمدحني بمقالاتي يحقرني لأنه لا يعلم أنها درهم من خزائن نفسي المفعمة بالذهب ، فهو يقول لي : إن الدرهم كبير منك لأنك فقير ، ولكن الذي ينقد مقالاتي وينقصها يقول لي : إنك غني فالدرهم قليل منك ، إن هذه المقالة حقيرة لأنك أنت عظيم ...

لقد تعلبت هذه المسألة من عهد قريب ، فصرت أحب النقد ، وكنت أجهلها من قبل فأميل إلى الثناء والتعريف

لبثت أعرض هذه المواكب من الأفكار ، حتى تعبت ومللت ، فألقيتها كلها في الصحراء ، وجلست أفكر في الصحراء وحدها ...

والكرسى . وملك الكائنات العظيمة ، فأحسست أن عقلى ينهدم
ويتحطم حين يحاول التفكير فيها وهي مخلوقة ، فكيف به
حين يحاول التفكير فى الخالق ؟

وذهبت أقابل بين هذه العظمة الهائلة التى لا يدنو من تصورها
العقل ، وتلك الدقة الهائلة دقة الجراثيم التى يمر الألف منها
من ثقب إبره ، دقة الكوارب التى يكون منها فى الذرة الواحدة
مئات من الكواكب الصغيرة ، يدور بعضها على بعض ، كما
تدور كواكب المجموعة الشمسية ، ذهبت أقابل بين هذا وذاك
فعجزت ، وأنكرت . نفسى وججدها وإدراكات إيماناً بالخالق
الأعظم ، فصحت من أعماق قلبى :
لا إله إلا الله !

أنكرت نفسى . ولم أعد أراها شيئاً ... ونسيت يدي ورجلي ،
حتى لقد حسبتهما جزءاً من الكرسى أو السرير الذى أجلس
عليه ، وأضمت ميولى كلها وشهوائى ، حتى لم يبق لى (أنا)
وإنما صرت (أنا) الكون كله ، الكون الذى ردد معى قولى ،
لا إله إلا الله ! فأحسست حيناً أنكرت نفسى . بلذة الوجدان
الذى لا توصف :

لا يعرف العشق إلا من يكابده ولا الصباية إلا من يعانها
وبدأت أفهم ما كنت قرأته من أقوال أهل التصوف ،
وتعلت أن الإنسان لا يحس بعظمة ، إلا إذا نسى نفسه وعظمته .
هنالك يجد هذا الجرم الصغير ، الذى هو رملة فى الصحراء
وعدم فى وجود الكوكب ، والذى لا يمتد عمره أكثر من
لحظة فى عمر السماء ... يجده أكبر من الكواكب ، وأخلد
من السموات ، لأنه عرف الله وأدرك حلاوة الإيمان ...
وقمت بعد ذلك أصلى ، فلما قلت : الله أكبر ، محى الكون
كله من وجودى ، ولم يبق إلا أنا العبد المئوم الضعيف ، والله
الإله العظيم الجبار !

ليس فى الدنيا شيء أجل ولا أجمل من الصلاة !

على الطنطاوى

(البصرة)

نظرت إليها وهي ممتدة على سرير الجزيرة الواسعة
- نائمة - فامتلات أكباراً لها وأعظاماً ، ثم فكرت أن لو
فتحت الصحراء عينها - أكانت تبصرنى - وتحس بوجودى ؟
أشعر أنا بوجود رملة حملتها الريح فطارت بها ، فست
وجهى وهي طائرة ، ثم مضت فى سبيلها ؟ ما أنا فى وجود
الصحراء إلا لرملة ، وما حياى إلا لحظة من حياتها ، ولو تئامت
الصحراء ، أو حكمت أنفها لتصرم قرن كامل قبل أن تنتهى من
تناوبها وحكمها أنفها ... فما أعظم الصحراء وما أطول عمرها ...
- بل ما أقل الصحراء . وما أقصر عمرها !

ما الصحراء ؟ بل ما الأرض كلها ؟ وما هذا المليار من
القرون الذى عاشته ؟ انه يوم من حياى ، انها نقطة من
بحرى ... انى نمت يوماً فلما أفقت وجدت نقطة صغيرة هناك ،
فقلت : ما هذا ؟ قالوا : مخلوق صغير يدعى الشمس ... فعجبت
من صغرها ، ثم لم أحفل بها ، فما أرضك هذا يا ... يا ...
يا أيها العدم !

هذا ما قاله لى كوكب قريب ، كان ينظر إلى بابها ...
فذكرت ما قاله علماء الفلك عن الكواكب وعظمتها ، فسكت
ولم أنطق ... وإذا بكوكب آخر يطل من هناك يقهقه ضاحكاً
يصرخ فى وجه الأول : اسكت اسكت أيها النملة الحقيرة ، من
أنت ؟ إن آلافاً مثلك لا تملأ وادياً واحداً من أوديتى ، انى
أحمل مائة مثلك بين أصبعين من أصابعى ...

وكان وراءه كوكب خافت لا يقول شيئاً ، لأنه لم يعلم
بوجود هذا كله - لا يراه لبعده وصغره ، وكان وراءه ستائة
مليون من الكواكب كل واحد أكبر من الذى قبله ، وأصغرها
من هذا الكوكب كالفيل من البعوضة ... فجلست أهدق فى
هذه الكواكب ذاهلاً مشدوهاً ، وانقطعت أفكارى عن الجريان
وأحسست بضائى ، حتى لقد خلتنى عدماً ...

ثم صغرت هذه الكواكب فى نظرى لما رأيت شيئاً أعظم
منها ، صغرت لما رأيت السماء . سقفاً مرفوعاً ، حتى غدت
كلها . مصابيح تزين السماء الدنيا ، ورأيت السموات تطيف
بها كلها . تحيط بهذا الفضاء . سبعاً طباقاً ، ورأيت الجنة من
وراء ذلك . عرضها السموات والأرض ، ورأيت العرش